

من أمراض القلوب الخطيرة قسوتها

إخوة الإيمان:

أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى وطاعته، واجتهدوا في إصلاح قلوبكم، فإن من أمراض القلوب الخطيرة قسوتها، ولقد اعتنى الشارح الحنيف بصلاح القلوب وتركيتها، وسعى إلى تطهيرها وتقيتها، وأبعد القلوب من الله القلب القاسي؛ الذي لا ينتفع بتذكير، ولا يلين لموعظة، ولا يفقه مقالة، فيصبح صاحبه يحمل في صدره حجراً صلداً لا فائدة منه، بل لا يصدر منه إلا الشر، إن القلوب تقسو؛ فتكون كالحجارة أو أشد قسوة، فتبعد عن الله وعن رحمته وطاعته، لأن القلب القاسي لا يتأثر بموعظة، ولا تنفعه نصيحة، ولا يتأثر بقراءة قرآن،

وقسوة القلب لها علامات كثيرة: منها عدم الانتفاع بمواعظ القرآن والتأثر بقوارعه، وما جفت الدموع إلا لقسوة القلوب، وما قست القلوب إلا لكثرة الذنوب، ومن مظاهر قسوة القلب أيضاً: التكاسل عن الطاعات وأعمال الخير، وربما التفريط فيها أو أداءها بلا خشوع وطمأنينة، فضلاً عن نظر بعضهم إلى الفرائض والواجبات الشرعية كأنها أقال ينوء بها صاحبها، ولما كان القلب يوصف بالحياة وضدها انقسم بحسب ذلك إلى أقسام ثلاثة: قلب سليم وقلب ميت وقلب مريض، وأمراض القلوب كثيرة، ومن أخطرها وأقبحها قسوة القلب، فمرض قسوة القلب من الأمراض الخطيرة.

ومن أهم أسباب قسوة القلب كثرة الكلام، ففي الحديث: لا تُكثروا الكلامَ بغيرِ ذِكْرِ اللهِ فَإِنَّ كَثْرَةَ الكَلَامِ بغيرِ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى قَسْوَةٌ لِلْقَلْبِ! وَإِنَّ أبعَدَ النَّاسِ مِنَ اللهِ الْقَلْبُ الْقَاسِي [رواه الترمذي] والقلب إذا صلح إذا صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم، ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت، إذا صلح الجسد كله، وإذا فسدت، فسد الجسد كله، ألا وهي القلب، وإن القلب هو محل نظر الله من العبد، فقال عليه الصلاة والسلام: إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم، وأعمالكم [رواه مسلم]

وإذا سلم قلب العبد من الأمراض فاز وأفلح، كما قال تعالى: يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ، ومن لقي الله بقلب مريض فقد خاب وخسر إن لم يتداركه الله برحمته قال الله تعالى: قَوْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أَوْلَيْكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، القسوة في القلب هي غلظته وتبوتته عن اتباع الحق وإغراضه عنه، وهي عقاب من الله تعالى يضبطه سبحانه وتعالى على المعرضين عن شرعه، المبتغدين عن هديه ودينه، يقول مالك بن دينار: ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب، وما غضب الله على قوم إلا نزع الرحمة من قلوبهم،

جاء أعزائي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فراه يقبل أحفاده، فقال: تُقْبَلُونَ الصَّيِّئَانَ؟ فما نُقِبْتُمْ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: أَوَ أَمَلِكُ لَكَ أَنْ تَزَعَ اللهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ! [البخاري] وتعني قسوة القلب الغلظة في التعامل مع الناس، عباد الله: أخطر أمراض القلوب وأعنتها على ابن آدم مرض القسوة الذي ينتظم عدداً من الأخلاق القبيحة، والأدواء الرذيلية، المتمثلة في العنف والغلظة والفظاظة والإغراض عن الحق، وعدم الحشوع لله، وعدم الإحساس بأهات المسلمين، وآلام الضعفاء والمساكين؛ وتلك جميعاً ويلاّت ومحنّ وبلايا على الأفراد والمجتمعات تزيل النعم، وتجلب النقم، وتنفذ إلى الزوال والفتاء، ثم الجحيم والسعير، تعود بالله من حال أهل النار ومآلهم،

القسوة عباد الله مناقضة صريحة للرحمة واللين والعطف والشفقة، تتفاوت في القلوب والتفوس ارتقاء وهبوطاً، وقلة وكثرة؛ فمن التائب من صار قلبه أفسى من الصخر الصلد، لا يحن لمستصرخ، ولا يعطف على متالم، ولا يلين لمتوجع، يقع أمامه من المواقف العظيمة التي تنهد لمثلها الجبال التراسيات، وتتقطر لها الأفيدة السليمة، وهو لا يحرك ساكناً، لأنه قد انعدمت في نفسه عاطفة الإحساس بالآلام الآخرين وحاجاتهم، حتى أورتته جفاً نفسياً، يتعدي معه الشعور بالواجب الإنساني الفطري نحو الخلق أجمعين، ولذا كان الاعتناء بصلاح القلب وإصلاحه لمن أهم المهام، وأعظم الثمرات، وأكبر الحسنات، وأنفع الأعمال، وأجل ما ينبغي أن تصرف فيه من الأوقات، وإن قسوة القلب لمن المصائب الكبرى، والذنوب العظيمة، والمفاسد الغليظة التي يجب أن لا نكون من أهلها، ولا نسير في الطريق إليها، ولا نعمل بأسبابها، فما وراء هذه القسوة إلا ضيق الدنيا، وعذاب الآخرة،

ولقد توعّد الله أصحاب القلوب القاسية بالعذاب الأليم، وبالويل في الجحيم، فقال ربنا: قَوْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أَوْلَيْكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، وبين أن قسوة القلوب سبب للضلال وانغلاق القلب، فلا يحشع ولا يعي ولا يلين ولا يفهم، ولذا وصف الله قساة القلوب بالضلال المبين فقال: أَوْلَيْكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، أيها المسلمون: اجتهدوا في إصلاح قلوبكم فإن القلب أشرف أعضاء الإنسان، جعله الله تعالى وعاء للخير والرشاد، ذاكراً لله، غاملاً له، ساعياً إليه، قائداً للجوارح والأركان؛ أو وعاء للشر والفساد، غاملاً عن الله، غاملاً للشيطان، ساعياً إليه؛ ولذا كان من أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ [رواه الترمذي وأحمد]

وللقلوب عباد الله حياة كحياة الجسد، بل أعظم منها وأجمل، ولها أمراض كأمراض الجسد، بل أعنى منها وأفسى، وعلى قدر حياة القلب تكون حياة الجسد والروح، وبصلاحه تصلح الأعمال، وتنال الدرجات، وتغفر الخطيئات؛ ويقدر فساد القلب واستحكام أمراضه تكون غاهة الجسد، وفساد الروح، وطلاخ الأعمال، والانغماس في السيئات، وفي الأثر أربع من علامات الشقاء: جمود العين، وفساوة القلب، وطول الأمل، والحِرْصُ على الذنب، لكن

لكل داء دواء، ففسوة القلب له دواء وعلاج ناجع، قال يحيى بن معاذ رحمه الله: دواء فسوة القلوب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتفكر والتدبر، وخلاء البطن من الحرام، وقيام الليل، والتضرع إلى الله عند السحر، ومجالسة المتقين، رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ، اللهم إنا نعوذ بك من فسوة القلوب وأدران الذنوب، والحزني يوم تنكشف العيوب، اللهم طهر قلوبنا من النفاق.

خطبة الجمعة ليوم 20 دجنبر 2024 م